مقاربة بين البلاغة والتداولية في الدّرس اللغوي العربي

A comparison between pragmatics and rhetoric in the Arabic language lesson

أ.د خويلد مُحَمَّد الأمين[1]، د.خويلد عبد العزيز[2]

[1] جامعة زيان عاشور الجلفة(الجزائر)، ma.khouiled@univ-djelfa.dz

[2] جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، khaziz1988@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/03/29 تاريخ القبول: 2023/04/05 تاريخ النشر: 2023/12/10

ملخص:

تجسد التداولية مجالا واسعا للبحث في اللسانيات وهي تولي اهتماما بالغا باللغة في طور استعمالها، وهو المذهب نفسه في البلاغة العربية القديمة. يهدفهذا البحث الى معرفة مدى صلة التداولية مع البلاغة العربية القديمة، لأن هناك من الباحثين لا يفرق ولا يميز بينهما، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف. اتبع الباحثان المنهج الوصفي التحليلي لأنه مناسب لتحقيق أهداف البحث.

ودلت نتائج البحث إلى أن هناك فروقات بين التداولية والبلاغة العربية القديمة، خاصة فيما تعلّق بالظهور أولا والمنهج المتبع في كلا العلمين

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ التداولية؛ البلاغة؛ القصد؛ التواصل.

Abstract:

Pragmatics is a wide field of research in linguistics, and it pays great attention to the language in its use, which is the same doctrine in ancient Arabic rhetoric.This research, aims to know the extent of the relationship of pragmatics with ancient Arabic rhetoric, because there are researchers who do not differentiate between them, and in order to reach this goal. The researchers followed the analytical descriptive approach because it is suitable to achieve the research objectives.The results of the research indicated that there are differences between deliberative and ancient Arabic rhetoric, especially with regard to appearance first and the approach followed in both sciences.

Keywords: Language; Pragmatics; Rhetoric; Intent; Communication.

المؤلف المرسل: خويلد مُحَمَّد الأمين، **الإيميل:** ma.khouiled@univ-djelfa.dz

1. مقدمة:

اتّفق اللغويون على أنّ الأصوات والمفردات والجمل والنصوص هي المكوّنات الأساسيّة للغة، وهي تستغل في التفاهم والتواصل بين أفراد المتكلمين بتلك اللغة، بمعنى أنّها "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"(ابن جني، 0000، صفحة 33)، فهي الجانب العملي للسان الذي يمثل عملية تصورية تصعب الإحاطة بها عند الاستعمال.

أمّا في مجال اللسانيات فقد قسّم اللسانيون اللغة إلى قسمين كبيرين؛ **الأول** هو اللغة في حدّ ذاتها باعتبارها ظاهرة اجتماعيّة، و**الثّاني** هو الكلام الذي يتميّز به كل فرد في المجتمع، ويصفه تشومسكي بأنّه مكوّن من مجموعة غير متناهية ولا محدودة من الجمل، وبهذا الطرح فاللغة هي "المجال الذي تنكشف فيه القصدية المقرونة بالتواصل في أعلى مظاهرها"(رحيمة، 2009، صفحة 63)، وخلال الممارسة لمكونات اللغة يتضح أنّ الأسلوب الأفضل في استغلالها هو التعبير عن المقصود بأسلوب لا يخل بغرض المتكلم، ولا يجعل السامع منتظرا لشيء آخر ، وأحسن ما يُعبّر به عن هذا الأسلوب هو الخطاب أو النص، الذي يشتمل على جميع مكونات اللغة مع أساليبها البلاغية.

وقد عبَّرت العديد من المدارس والمناهج عن هذه الوسيلة بتسميات ومصطلحات عديدة، يكمل بعضها بعضا منها مصطلح التداولية، وهيمنآخر ما أنتجتاللسانيات، ورغم الانتقادات التي وجهت لها فإن لغة النص الأدبي عموما وكلّ الأعمال الفنية تحمل شيئا من الكلام وكثيرا من ذات المتكلم بها كمميزات فردية تتعلق بصاحبها(خليفة، 2012، صفحة 05).

فعلى المتكلّم أن يبني كلامه وفق عقول المخاطَبين، ومقتضى حال السامعين طبقاً للمقولة الشهيرة لكلّ مقام مقال، فالسّامع كيفما كان حاله، هو محور الرسالة المرسلة باللغة المتداولة التي يفهمها الطرفان ويتواصلان بها، وهكذا يتضح أن العلاقة بين البلاغة والتداولية هي علاقة تكاملية.

وإشكالية البحث تتمحور حول علاقةالتداوليّة في اللسانيات العربية الحديثة بالبلاغة العربية القديمة؟وللإجابة عن هذا التساؤل طرحنا عدّة فرضيات يمكن أن نلخصها فيما يلي:

-ظهور بلاغة معاصرة تسمّى التداولية.

- البلاغةُ والتداوليةُ قد يختلفانِ في أمورٍ ويشتركانِ في أمورٍ أخرى.

وسنتناول في هذا البحث تشخيصا للعلاقة بين التداولية والبلاغة، وذلك اعتمادا على المنهج الوصفي لأنّه الأنسب لبيان الظواهر اللغوية، بغية الوصول إلى توضيح العلاقات بين العلمين المذكورين.

2. ارهاصات التداولية في اللسانيات الغربية الحديثة

يعتبر اللسانيون أنّ التداولية هي نتاج عدة مناهج لسانية عبر مراحل مختلفة حتى استقرّت بصفة واضحة في مصطلح اللسانيات التداولية في العقد السّابع من القرن العشرين كنظرية لسانية حديثة، كما أنّ لمفهوم اللغة معنى واسعا؛ وذلك بالأخذ في الاعتبار كل من الرموز والإشارات والايماءات والاصطلاحات المختلفة، فاللغة إذا هي نظام من الإشارات التي تشير إلى المقصود بنية التبليغ والتخاطب والتواصل(شفيقة، 2004، صفحة 10) ، وقد تحدث **دي سوسير** عن اللغة باعتبارها جزءا من علم العلامة، حيث يقول: " فعلم اللغة هو جزء من علم الإشارات العام"(خليفة، 2012، صفحة 39)، ويعود ذلك حسب الدارسين اللسانيين وغيرهم إلى " أنّ اللغة هي النظام التواصلي الوحيد الذي يؤدي وظيفته من زاويتين مختلفتين في التعبير عن الأشياء هما الزاوية الاشارية والزاوية الدلالية"(خليفة، 2012، صفحة 39).

وقد قسّم أحمد المتوكل النظريات اللسانية الحديثة باعتبار هاتين الزاويتين إلى قسمين هما(أحمد، 1985، صفحة 08):

أوّلا:نظريات لسانية صوريّة:وينصبّ اهتمامها على " دراسة اللغة الطبيعية، وتناولها تناولاً صوريّا صرفا على مستوى التركيب أو على مستوى الدلالة"(خليفة، 2012، صفحة 40)، كما اعتبر اللغات الطبيعية أنساقا مجرّدة، يمكن وصفها بمعزل عن وظيفتها التواصليّة(أحمد، 1985، صفحة 08).

ثانيا:نظريات لسانيّة وظيفية:ويعد معيار الاستعمال هو الفيصل في تحديد طبيعة البنية وتشكيلها، وهي "تشمل كلّ النظريات اللسانية التي تعتمد المبدأ الآتي: اللغات الطبيعية بنيات تحدِّد خصائصها (جزئيّا على الأقل) ظروفُ استعمالها في إطار وظيفتها الأساسية؛ وظيفة التواصل"(أحمد، 1985، صفحة 08)، ومن نماذج هذه المجموعة (**التداولية**).

ويستند التفكير التداولي إلى عدة مصادر،وهي موزعة بين الفلسفة والمنطق، وبعض نظريات اللسانيات الحديثة نذكر منها(خليفة، 2012، صفحة 40):

1.2 الفلسفة اللغوية:

وهي "تشمل بحوث روّاد فلسفة اللغة الطبيعية والفلسفة التحليلية، مقابل مدرسة اللغة الشكليّة، وتقوم على دراسة كيفيّة توصيل معنى اللُّغة الإنسانية الطبيعية من خلال الإبداع، وتلك هي المنابع التي نشأت فيها التداولية"(خليفة، 2012، صفحة 40)ومن بين الفلاسفة الذين اشتهروا في هذا المجال: بيرس، وموريس، وأوستن، وفريج، وفيتغنشتاين،... الخ، حيث كان هؤلاء "يلحّون على وصف اللغة في استعمالاتها دون تجريدها من تداولها العادي، وحصروا المعنى في الاستعمال"(خليفة، 2012، صفحة 42)، ويقصدون بذلك استعمال اللغة استعمالا جيدا واقعيا لا حفظ المفردات مجردة.

وترجع أهميّة الدّرس التداولي إلى فلسفة **بيرس** التي تنطلق من دراسة العلامة، وهي أوسع من مجالها اللغوي من وجهة نظره، مُمثّلا لذلك بلغة الفكر، إلى أن اعتبر أنّ الانسان نفسه علامة، لأنّ العلامة تحيل" دائما على علامات أخرى، ومن هنا نجد الفكر بدوره، كعلامة تحيل على فكر آخر، هو علامتها المؤوّلة. ويحيل هذا الفكر الأخير بدوره على فكر آخر، يؤول إلى سياق مستمر وغير محدود. فالإنسان نفسه علامة، وحين نفكر فنحن علامة"(فرانسواز، 1986، صفحة 15)، ولهذا يقال إنّ لغة الفكر أوسع وأشمل من لغة النطق، فأحيانا قد يعجز المتكلّم أن يجد ألفاظا مناسبة للتعبير عن موقف ما، فيعبّر عن ذلك بإشارات وإيماءات، تسدّ مسدّ الكلمات فيفهم من خلالها الموقف.وعند حديثه عن التأويل الذي طرحه في الفكرة، ميّز بين الدلالة بعدّها دراسة المؤوّلات، وبين التداولية التي تهتمّ بدراسة بقايا هذه المؤوّلات ورواسبها(خليفة، 2012، صفحة 45)، فكان من أهمّ ما أسهم به **بيرس** في نشأة الدرس التداولي(خليفة، 2012، صفحة 45):

- التمييز بين التّعبير بعدّه نمطا، وبين ما يقابله أثناء الاستعمال.

- التمييز بين كلّ من العلامة، الرمز، الإشارة، والأيقونة.

أمّا **موريس(Mourris)** الذي يعد من مؤسسي علم السيميائيات إلى جانب **بيرس(Peirce)**، فقد جعل التداولية "جزءا من السيميائية، التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات"(فرانسواز، 1986، صفحة 08)؛ وهو بهذا الطرح وضع للتداولية أبعادا لا حدود لها، فهي لا تقتصر على المجال اللساني والإنساني فقط، بل تتعدّاهما إلى مجالات أخرى كالمجال السيميائي، والمجال الحيواني والآلي، بل جعل التداولية من الأسس التي يقوم عليها علم السيمياء، وخلص في الأخير إلى تعريف تداولي للّغة، بأنّها نشاط تواصلي ذو طبيعة اجتماعيّة(خليفة، 2012، صفحة 46).

وما ينبغي الإشارة إليه هو ضرورة التفريق بين التداولية في صورتها الكليّة، والتداولية في صورتها اللغوية؛ فالأولى تركّز على الأداء والتطبيق وتحرص على الممارسات اليوميّة؛ لذا تعدّدت مجالاتها بتعدّد وجوه الحياة من تربية وتعليم وسياسة واقتصاد. أمّا الثانية؛ فتشتغل على تحديد هويّة العلاقة بين اللغة وسياقاتها وصانعي هذه السياقات، أي بمراعاة ظروف الخطاب وحال المخاطب واختيار الألفاظ والتراكيب المناسبة لذلك، وهذا ما يعرف بالاستعمال اللغوي، ولما نتحدّث عن الاستعمال اللغوي، فإنّ **فيتغنشتاين** من الفلاسفة الأوائل الذين نظروا من هذا الجانب، "بدءا من أعماله الأولى في المنطق والفلسفة، ومن خلال كتابه (بحث في الفلسفة والمنطق_1921م_)؛ الذي كشف فيه مفهوم التلاعب بالكلام، وأصبح فيما بعد أحد دعائم ظهور التداولية؛ ذلك أنّه مرتبط بالمعنى الفعليّ الذي منحه للملفوظات؛ وهو قائم على ممارسة التأويل من خلال الأداء الفعليّ للغة"(خليفة، 2012، صفحة 42).

2.2 النظريات اللسانية الحديثة:

إنّ اللسانيات التداولية هي نتاج عدّة مناهج لسانية و"خلاصة بحوثهم وخلفياتهم الفكرية التي نشأت فيها التداولية، أنها تنطلق جميعا من الاهتمام بالتواصل، والاستعمال الفعليّ للغة، لأنّ ذلك ما

يحدّد بنيتها التركيبية، إضافة إلى أنّ المتكلّم يبني كلامه وفق ظروف التواصل، وطبيعة المتلقي، لا وفق مبادئ النظام أو حتّى ما يرتبط به هو، بعدّه منتج الكلام"(خليفة، 2012، صفحة 50).

إنّ حقل التداولية حقل ضخم، تُلُقّيَ عموما بوصفه كيانا غامضا، توضع فيه الأعمال الهامشية التي لا تنتمي إلى الاختصاصات المؤسسيّة، وهي اللسانيات، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس الاجتماعي، والدلائليّة، ...الخ، والمشاكل التي أثارتها هذه الاختصاصات ولم تتوصّل إلى معالجتها بشكل مرض، فكان هذا سببا في تداخل واشتراك عدّة مناهج ومدارس وعلوم في إنتاج نظرية عامّة للنشاط اللساني تسمّى : التداولية، وكان من الطبيعي أن تتجاذب تعريفاتها عدّة جهات وتيارات يصعب معها إعطاء تعريف شامل جامع لها (خليفة، 2012، صفحة 52)، فـ:(مانقونو)**D.Mangounau** –مثلا– في حديثه عن التداولية نجده يصرّح بصعوبة هذا الاتجاه بقوله: "إنّه من الصعب الحديث عن التداولية لأن هذا التعبير يغطيه العديد من التيارات من علوم مختلفة، تتقاسم عددا من الأفكار... واللسانيون ليسوا وحدهم المعنيين بالتداولية، بل تعني الكثير من علماء الاجتماع إلى المناطقة؛ وتتجاوز اهتماماتها بمجموع الأبحاث المتعلقة بالمعنى والتواصل، وتطغى على موضوع الخطاب لتصبِح نظرية عامة للنشاط الإنساني"(خليفة، 2012، صفحة 52)، فمن هذا المنطلق يتبادر إلى الذهن أنّ أقرب حقل معرفي للتداولية هو اللسانيات. وهي "تسعى إلى أن تكون مندمجة فيها لا كتكملة لها، بل كجزء لا يتجزّأ منها"(آن وجاك، 2003، صفحة 47)، وبقدر حسن استغلالِها يتطوّر استغلال اللسانيات.

3. ارهاصات التداولية في اللسانيات العربية الحديثة:

حين نتكلّم عن إرهاصات ومنطلقات التفكير اللغوي التداولي لدى العرب، نجد أنّهم قد عُرِفوا منذ العصر الجاهلي بفصاحة اللسان وبلاغة المقال وفصل الخطاب، كما يبدو ذلك جليا عند قس بن ساعدة في خطبه المشهورة، وفي العصر الإسلامي دخلت المفردات والمعاني الدينية والآيات القرآنية التي ارتقت باللغة العربية، وقد قال رسول الله ﷺ:" أُوتيت جوامع الكلم" مثل: "الدين المعاملة"، و"قل آمنت بالله ثم استقم"، وقد حوت اللغة منذ ذلك العصر المنطق الخصيف ومخاطبة العقل والعواطف

حسب ما يقتضيه المقام، ثم جاءت علوم القرآن وعلوم الحديث وتقنين القواعد منذ أبي الأسود الدؤلي وعمرو بن العلاء وغيرهما من جُمَّاعِ اللغة، إلى أن وصلت في العصر العباسي أوَجَها، حيث أثريت بالترجمة والاستفادة من الحضارات الأخرى وظهرت المناظرات، وهذا يدلّ على المكانة الراقية التي وصلت إليها اللغة العربية في عصورها الذهبية، وساهمت مساهمة فعّالة تأثيرا وتَأَثُرا فأصبحت بذلك لغة العلم والفن والوجدان، وقد أبدع علماء اللغة في استثمار علوم المعاني والبديع والبلاغة والاشتقاق والتصريف ....، فإذا نظرنا إلى المقامات والتحدث على لسان الحيوانات كما عند الجاحظ وابن المقفع وما تناوله ابن جني وعبد القاهر الجرجاني وابن سيده وغيرهم، نجد إرهاصات جلية في إرساء دعائم التداولية.

وعليه يمكن القول إنّ التداولية ذلك المصطلح العربي، الموافق لـ **Pragmatics**، ويدلُّ في الغالب على ما له علاقة بالأفعال والوقائع؛ فهي تعبير عن نشاط الإنسان من حيث هو، ويرجع الفضل في وضع هذا المصطلح للأستاذ طه عبد الرحمن سنة **1970**م كمفهوم اصطلاحي.

ونجد أنّ طه عبد الرحمن قد بَلْور ما توصل إليه العلماء في هذا الميدان، وقد أشار القرآن الكريم إلى اللفظ منذ أزيد من أربعة عشر قرنا، من ذلك قولُه تعالى: **(**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**)**(آل عمران، الآية 140)، و تعد اللسانيات التداولية (**Linguistique Pragmatique**) من أحدث الاتجاهات اللغوية التي ظهرت وازدهرت في الدرس اللساني الحديث والمعاصر(باديس، 2011، صفحة 155)، وقد جمع عبد الرحمن طه في مفهومه للتداولية النشاطات الفكرية للأقدمين في موضوع وسيلة التواصل، وخلاصة ما توصّل إليه ممن اطّلع على أقوالهم في الدرس الحديث.

4.أهداف التداولية عند العرب

اختلف الدارسون في إعطاء تعريف شامل للتداولية، فكل يعرّفها حسب منطلقه الفكري وفلسفته اللغوية ، فهي "ليست علما لغويا محضا، بالمعنى التقليدي، علما يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنّها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال؛ ويدمج من ثَمَّ مشاريعَ معرفية متعددة في دراسة

ظـاهرةِ (التواصـل اللغـوي وتفسـيره)"(مسـعود، 2005، صـفحة 16)، أي باعتبـار مراعـاة علاقـات الظـاهرة التواصـلية بشـتّى العلـوم والمعـارف، كالفلسـفة وعلـم الـنفس المعـرفي وعلـوم التواصـل ... الخ، وسـؤالها التأسيسـي هـو البحـث في كيفيـة تفاعـل البِـنى والمكـوّنات اللغويـة مـع عوامـل السـياق لغـرض تفسـير الملفوظـات ومسـاعدة السّـامع علـى ردم الهُـوّة الـتي تحصـل أحيـانا بـين المعـنى الحـرفي والمعـنى الـذي يقصـده المـتكلّم، كمـا تسـهم في حـل مشـاكل التواصـل ومعوقاتـه(باديـس، 2011، صـفحة 155)، وذلـك مـن أجـل التعبـير عـن المقصـود أو مـا يجـول في الـذهن بوسـائل غـيرِ كلاميـة؛ أي كـل مـا يمكـن أن يوصـل الأفكـار بـين أفـراد المجتمـع اللسـاني الواحـد علـى أسـاس أنّ المـتكلم كثيرا ما يعني أكثر ممّا تقوله كلماته.

وعلى الرغم من تضارب الآراء واختلافها في تعريف التداولية، إلاّ أنّ معظمها"يقرّ بأنّ قضية التداولية هي إيجاد القوانين الكليّة للاستعمال اللغوي والتعرّف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير التداولية، من ثَمَّ، جديرة بأن تسمّى علم الاستعمال اللغوي"(مسعود، 2005، الصفحات 16-17)، أو **دراسة** اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛إشارة إلى أنّ المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده ولا بالسامع وحده، وإنما يتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد وصولا إلى المعنى المقصود من الكلام، وهذا هو التواصل.

5. علاقة التداولية بالبلاغة العربية القديمة

يتّضـح ممّـا سـبق ذكـره أنّ للمـتكلّم دورا بارزا في اللسـانيات التداوليـة بعـدِّه منـتج الخطـاب والمتلفظ بـه، فـالمتكلم أسـاس فهـم المعـنى وتحديـد الـدلالات ومقاصـدها، لأنّـه يـرتبط بمـا ينويـه مـن كلامه وما يروم تحقيقه(باديس، 2011، صفحة 166).

وللسّـامع _كـذلك_ أهميّـة قصـوى في اللسـانيات التداوليـة، لأنّ لـه دورا كبـيرا في العمليـة التواصـلية، ولأنّ الهـدف الأسـاس مـن اسـتعمال الكـلام بمختلـف أسـاليبه، هـو إيصـال رسـالة إلى شـخص معـيَّن أو إلى مجموعـة مـن الأشـخاص؛ فاسـتعمال الكـلام يسـتوجب وجـود عنصـرين هما

المتكلِّم الذي يؤلِّف المرسلة تبعا لأهوائه ورغباته(نعمان، 2009، صفحة 14)، والمخاطب الذي يقوم بفك رموز هذه المرسلة لفهمها، فلابدّ إذا من أن تكون هناك مرسلة يبثّها المتكلم ليتلقّاها المستمع الذي قد يكون شخصا حقيقيا أو وهميا متخيلا من قبل المتكلِّم؛ فهذا التواصل الخارجي لا يقوم إلاّ بوجود قطبي الحديث (المرسل والمرسل إليه)، بالإضافة إلى وجود مرسلة تنتمي إلى نظام مشترك بين طرفي التواصل ليتمكّن كل منهما من فهم الآخر وإفهامه(نعمان، 2009، صفحة 14).

ولهذا ورد في البلاغة العربية القديمة أنّه على المتكلّم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة كلاما ولكلّ حالة من ذلك مقاما، حتّى يَقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، ويقسّم أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات،فعلى المتكلّم أن يبني كلامه وفق عقول المخاطَبين، أي وفق مقتضى حال السامعين طبقاً للمقولة الشهيرة لكلّ مقام مقال، فالسّامع كيفما كان حاله، هو الذي يُبنى عليه المرسلة باللغة المتداولة التي يفهمها الطرفان ويتواصلان بها، وهكذا يتضح أن العلاقة بين البلاغة والتداولية هي علاقة تكاملية اتصالية.

6. الفرق بين البلاغة والتداولية

بعد معرفة إرهاصات التداولية سواء في الدراسات اللسانية الغربية أو العربية، وكذلك ما يتعلّق بتعريفاتها التصوّرية وعلاقتها باللسانيات؛ فقد اتضح الرابط بين اللسانيات والتداولية ،فكلاهما يتناول اللغة ،وذلك أنه" لما كانت اللغة في جوهرها لا تعني مجرد نظام من العلامات، بل هي في الأساس نشاط تواصلي يقوم على استعمال العلامة اللغوية لإنجاز أفعال تواصلية، لأنّ وظيفتها الأساسية هي التواصل بإجماع العلماء والباحثين"(فهيمة، 2012، صفحة 208)، وعليه فالتداولية هي وسيلة أساسية للاتصال بين أفراد المجتمع الواحد، وتشتمل على عدد من

المكـونات ممّـا يجعلهـا تشـترك مـع البلاغـة في عـدة مسـائل ،كاعتبـار مقـام السّـامع وحجّـة الإقنـاع ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، وفي هذا الصدد ينبغي أن نبيّن أمرين هما:

أولا: يجب أن نفرّق بين التداولية والبلاغة، حيث هناك من الدارسين المحدثين من لم يفرّق بينهما كمحمد العمري حين يقول: "وحديثا، يعاد الاعتبار إلى البلاغة العربية في الدراسات السّيميائية تحت عنوان جديد هو التداولية"(خليفة، 2012، الصفحات 126-127)، لكن بالنسبة إلى الباحث إذا كانت التداولية في أبسط تعريف لها، هي دراسة مناحي الكلام أو دراسة اللغة عند الاستعمال، فإنّ البلاغة هي المعرفة باللّغة أثناء استعمالها، وشتّان بين الدراسة والمعرفة.

ثانيا: ما يتعلّق بأحقيّة الظهور أولا بين التداولية والبلاغة، فكثير من الباحثين والدّارسين يعتبر التداولية من نسج البلاغة لكن بالنسبة للباحث فالأمر ليس كذلك، فبما أنّ من تعريفات التداولية: دراسة اللغة في طور استعمالها، أي الكلام الذي وجد بالطّبع قبل أن تعرف البلاغة كعلم، فأصبح هناك ما يسمّى ببلاغة المتكلّم وبلاغة الكلام، وبهذا الطرح كان لزاما أن نردف البلاغة على التداولية، وليس العكس، باعتبار أنّ التداولية هي الأصل.

لقد عني الباحثون بدراسة اللغة وفقا لاتجاهين رئيسيين: **الاتجاه الشكلي**؛ الذي قعّد العرب من خلاله لعلمي النحو والصرف، **والاتجاه التواصلي** الذي يدرس اللغة من خلال المنجز اللفظي في سياق معيّن(سليم، 2009، صفحة أ)،وهذا الأخير هو الذي تندرج ضمنه البلاغة والذيُعتَبَرُ من أهمّ العلوم المكتملة في الدرس العربي القديم، إذ "تمثّل علما للاتصال، يتناول كلّ ما يرتبط باستعمال اللغة وممارستها، من دون أن تستثني في ذلك شيئا ممّا له علاقة بالتّواصل"(خليفة، 2012، صفحة 126).

ثمّ إنّ مصطلح البلاغة عند أهل **اللغة** له ارتباط وثيق "بالدَّلالة على حسن الكلام مع فصاحته، وأدائه للغاية المرادة منه (القصد)، فهي مأخوذة من قولنا: بلغ الشيء منتهاه وأدرك أقصاه"(باديس، 2011، صفحة 165)، أي أنّ الدلالة العامّة للبلاغة هي "الانتهاء، والوصول، والبلوغ؛ وهي بهذه الدلالة لا تختلف عن مفهوم الاتصال والإبلاغ، بل إنها تقتضي مفهوم التواصل ذاته"(خليفة، 2012، صفحة 130).

أمّا في **الاصطلاح** يقول أبو هلال العسكري: "البلاغة كلّ ما تَبْلُغُ به المعنى قلب السامع، فتمكّنُه في نفسه لتمكُّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"(أبو هلال، 1984، صفحة 19)،فالبلاغةبهذا الطرح "تقوم على مبدأ الاتصال واستخدام اللغة استخداما سليما، يضمن وصول المعاني إلى المخاطَبِين كما هي في نفوس المتكلمين؛ بحسب اختلاف أحوالهم ومقاماتِهم"(خليفة، 2012، صفحة 130)؛ يرى عبد القاهر الجرجاني أنّه لا يكفي أن نقول في مزيّة الكلام "إنه خصوصية في كيفية النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها على بعض، حتّى تصفوا تلك الخصوصية وتبيّنوها ..."(عبد القاهر، 1981، صفحة 30)، وهذا ما ذهب إليه أبو هلال العسكري، حيث يقول: "ينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلامًا، ولكلِّ حال مقامًا"(أبو هلال، 1984، صفحة 135)، فالكلام الذي يُخاطَب به الطبقَة المثقّفة من النّاس لا يمكن أن يُخاطَب به عامّة النّاس وسُوقَتُهُم، يقول ابن خلدون في فصل علم البيان: "... فاشتمل هذا العلم المسمّى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيآت والأحوال والمقامات وجُعل على ثلاثة أصناف الصنف الأول يُبحَثُ فيه عن هذه الهيآت والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مُقتضيات الحال ويُسمَّى علم البلاغة ..."(عبد الرحمن بن مُحَمَّد، 0000، صفحة 610).

وبلاغة الكلام كما وردت في كتب البلاغة هي مطابقته لما يقتضيه حال الخطاب مع فصاحة ألفاظه، ولا يمكن أن يطابق الكلام لمقتضى الحال إلاّ إذا كان وفق عقول المخاطبين واعتبار طبقاتهم في الفهم، أي أنّ أسلوب الكلام أمام الطبقة المثقّفة لا يمكن ولا يصلح أن يخاطب به عامّة النّاس وسوقتهم، وعليه، "يجب على البليغ أن يوظّف في كلامه طائفة من الأدوات البلاغية نحو التشبيه وأنواعه والمجاز والكناية والاستعارة بأنواعها كي يكون كلامه (خطابه) بليغا، في صورة تأسر المتلقي وتؤثّر فيه، وبذلك يضمن المتلفّظ بالخطاب تلقّي سامعه لخطابه على النحو الذي يرمي إليه، وهو لا يتوفر عند كلّ النّاس فيقتصر على طبقة البلغاء منهم فقط(باديس، 2011، صفحة 167)، إذا فالكلام البليغ هو الذي يصوّره المتكلم بصورة تناسب أحوال المخاطبين.

أمّا بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على التصرف في فنون الكلام وأغراضه، ببديع القول وساحر البيان، مما يأخذ بألباب السامعين، ويوقفهم على غاية ما يريد بجلاءٍ ووضوح، بمعنى أنّ المتكلم يجب أن يبلغ في استعماله الكلام الحد الذي يمكِّنه من توفية تراكيب الكلام حقّها، فيكون فصيحا، ممّا ينبغي تحاشيه من مخالفة القياس وضعف التأليف والغرابة والتعقيد في اللفظ والمعنى، وعليه "فمدار بلاغة المتكلم قائم على حسن التأليف، وسلامة الأداء، وإدراك المقاصد، ومطابقة مقالِه للمقام"(خليفة، 2012، صفحة 131)، لذا وجب على دارسالبلاغة معرفة اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع، مع سلامة الذوق، وكثرة الاطلاع على كلام العرب، حتى يتمكَّن إلى قلب السّامع وجذبه إلى ما يرمي إليه المتكلم بسهولة ووضوح دون أيَّ تعقيد وهذا ما يُعَبَّرُ عنه بمطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ومن هذا المنظور فالبلاغة تقوم على ثلاثدعائم:

- أوّلاها: اختيار اللفظة.
- وثانيها: حسن التركيب وصحَّته.
- وثالثها: اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين، مع حسن ابتداء وحسن انتهاء.

7. خاتمة:

إنّ التداولية والبلاغة العربية يتّفقان في أمور عديدة أهمّها:

-إنّ التداولية وسيلة أساسية للاتصال بين أفراد المجتمع الواحد، وتشتمل على عدد من المكونات ممّا يجعلها تشترك مع البلاغة في عدة امور كاعتبار مقام السّامع وحجّة الإقناع ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، ...الخ.

-إنّ الغرض الأساسي من الكلام هو التعبير عمّا يجول في الفكر ومشاعر النفس، فيصحّ أن يقال في وصفه السهل الممتنع، وإن تعذّر فهمه ، وتشترط كل من التداولية والبلاغة على المتكلّم أن يراعي شرط القصد في الكلام، وخاصة ما تعلّق بالإبلاغ، و يأتي البحث التداولي ليقدم الإجابة عن العديد من

التساؤلات التي طرحها اللسانيون، مثل:من يتكلم؟، من هو المتلقي؟، ما هي مقصديتنا أثناء الكلام؟، كيف نتكلم بشيء، ونسعى لقول شيء آخر؟، ماذا علينا أن نفعل حتى نتجنب الإبهام والغموض في عملية التواصل؟، هل المعنى الضمني كاف لتحديد المقصود؟ ..، وكل تساؤل له علاقة في إنجاح العملية التواصلية.

كما أنّ الدرسين التداولي والبلاغي يختلفان في أمور أخرى نذكر منها:

– ما يتعلّق بأسبقية الظهور بين الدّرسين، فكثير من الباحثين يعتبر التداولية من نسج البلاغة لكن الأمر ليس كذلك، فالتداولية تتناول مقاصد الكلام، الذي وجد قبل أن تعرف البلاغة كعلم.

– تندرج التداولية ضمن **النظريات اللسانيّة الوظيفية**،حيث يعد معيار الاستعمال هو الفيصل في تحديد طبيعة البنية وتشكيلها، فهي **دراسة** مناحي الكلام المستعمل، في حين تندرج البلاغة ضمن **الاتجاه التواصلي** الذي يدرس اللغة من خلال المنجز اللفظي في سياق معيّن. فهي **معرفة** الكلام المستعمل، وشتّان بين **الدّراسة والمعرفة**، وهذا يبين الفرق بين العلمين في منهج البحث أثناء تحليل الكلام.

ويمكن أن نقترح – في هذا السياق – ضرورة إنجاز أبحاث ودراسات تطبيقية في المدونات الشعرية والنثرية والقرآنية من أجل توضيح التضافر بين العلمين في دراسة وتحليل المنجز الكلامي، وذلك بإبراز القوانين والقواعد اللغوية والجمالية والفنية التي تتجلى في الفعل الكلامي، من جهة، ثم دراسة المناحي المختلفة، لسانية كانت أو غير لسانية، والتي ترتبط بالكلام المنجز من جهة أخري، حتى نتمكن من الوقوف على العلاقة التكاملية بين الدرسين البلاغي والتداولي.

8. قائمة المراجع:

الكتب:

ابن خلدون، عبد الرحمن بن مُحَمَّد، (0000)، مقدمة ابن خلدون المسمّاة كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، دار الجيل، بيروت.

أبو الفتح عثمان، ابن جني، (0000)، الخصائص، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت لبنان.

أرمينكو فرانسواز. (1986). المقاربة التداولية. المغرب: مركز الانماء القومي.

الجرجاني، عبد القاهر، (1981). دلائل الاعجاز، دار المعرفة، لبنان.

العسكري، أبو هلال، (1984)، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، دار الكتب العلمية، بيروت.

العلوي، شفيقة، (2004)، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، أبحاث للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت لبنان.

المتوكّل، أحمد، (1985)، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة دار البيضاء، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، المغرب.

الميداني، عبد الرحمن حسن حبنّك، (2010)، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق.

آيت أوشان، علي، (2000)، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، المغرب.

بوجادي، خليفة، (2012)، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر.

بوقرة، نعمان، (2009)، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، جدار للكتاب العالمي، الأردن

روبول آن، و موشلار جاك، (2003)، التداولية علم جديد في التواصل، دار الطليعة، لبنان.

صحراوي، مسعود، (2005)، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، لبنان.

الأطروحات:

حمدان، سليم، (2009)، أشكال التواصل في التراث البلاغي العربي دراسة في ضوء اللسانيات التداولية، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في لسانيات الخطاب، قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة الحاج لخضر، باتنة.

شيتر، رحيمة، (2009)، تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب أنموذجا، أطروحة مقدّمة لنيل دكتوراه العلوم في الأدب، قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة الحاج لخضر، باتنة.

المقالات:

لحلوحي، فهيمة، (2012)، تمريات في دلالة النص وتداوله، مجلة كلية الآداب واللغات بسكرة، العددان (العاشر والحادي عشر).

لهويمل، باديس، (2011)، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، بسكرة، (العدد السابع).